تمكنت قوات خالد بن الوليد من دحر جيش مسيلمة في معركة شهيرة عرفت بمعركة حديقة الموت لكثرة من قتل فيها من المرتدين وعلى رأسهم مسيلمة الكذاب نفسه. كما استشهد فيها عدد كبير من المسلمين اختلفت المصادر في تقديره[1]، وكان أكثر التقديرات اعتدالاً يشير إلى أن قتلى المسلمين كانوا حوالي أربعمائة وخمسين رجلاً منهم مائة وأربعون من المهاجرين والأنصار[2].

إن انتصار المسلمين في معركة حديقة الموت على المرتدين من أتباع مسيلمة الكذاب، قد وضع حداً لحركات الردة في شبه الجزيرة العربية، وساعد في توحد الأمة تحت قيادة خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر الصديق ﷺ وكان من أهم أسباب نجاح المسلمين في مواجهة مخاطر الردة حزم وصلابه أبي بكر الصديق في اتخاذ القرارات ووقوف عرب الحجاز من أهل مكة والمدينة والطائف وراء قيادته الحكيمة، بالإضافة إلى تفرق حركات الردة وعدم التنسيق فيما بينها وانكماش كل واحدة منها على نفسها ضمن سياسة دفاعية ضعيفة حتى تمت تصفيتها الواحدة تلو الأخرى. وإذا كان لا بدّ من الإشارة إلى دور بطل كانت له مساهمة متميزة في القضاء على حركات الردة في الميدان العسكري، فلا شك أن ذلك البطل كان خالد بن الوليد المخزومي الذي قاد أهم المعارك وأخطرها ضد المرتدين طوال السنة الأولى من خلافة أبي بكر الصديق.

3- البدء بتحرير(*) العراق والشام:

يميل الباحثون المعاصرون إلى التساؤل عن الدوافع التي حملت أبا بكر الصديق على اتخاذ قرار المباشرة بحروب تحرير العراق والشام على الرغم مما فيها من صعوبات ومخاطر، إذ أنها كانت تعني الدخول في حرب مع أكبر إمبراطوريتين في العالم في ذلك الوقت، وهما الإمبراطورية الساسانية والإمبراطورية البيزنطية[3].

ولا تقدم لنا المصادر التاريخية جواباً مباشراً عن هذا التساؤل الخطير، ويبدو أن

---

(1) المصدر نفسه، ص 248، البلاذري: فتوح البلدان، ص 102، الطبري: تاريخ، ج 3، ص 294، 296 - 297.

(2) ابن خياط: تاريخ، ج 1، ص 77.

(*) أطلق المؤرخون المسلمون على حروب التحرير مصطلح "الفتوحات" وهي لا تعني التغلب والقهر، كما يرى بعض المؤرخين المعاصرين، وإنما هي تعني إعلاء كلمة الله في الأرض وإظهار الحقيقة للناس، (راجع: القرآن الكريم، سورة الفتح، الآية 1 – 3، سورة النصر، الآية 1 – 3، وات: محمد في المدينة، 99 – 100.

(3) راجع على سبيل المثال، الدوري: مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، ص 44 – 47: عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية، ج 1، ص 161 - 167.

أبا بكر الصديق وكبار الصحابة الذين من حوله لم يكونوا ينظرون إلى الأمور بعقلية استقرائية باردة كما ينظر إليها العديد من رجال السياسة والحرب في الوقت الحاضر. لقد كانوا يعيشون حرارة العقيدة والجهاد ويتطلعون إلى مواصلة الرسالة التي حملها الرسول ﷺ إلى العرب والإنسانية. لذا فقد أعلن أبو بكر الصديق بعد مبايعته بالخلافة مباشرة التزامه بمواصلة سياسة الجهاد، وذلك لأنه "لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله الا ضربهم الله بالذل"[1].

ومن ثم فقد قام بإرسال بعثة أسامة إلى بلاد الشام لمحاربة حلفاء الإمبراطورية البيزنطية تنفيذاً لسياسة الرسول ﷺ في هذا المجال على الرغم من مخاطر حركات الردة التي اشتد أوارها في مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية.

ولم يكد أبو بكر الصديق ينتهي من تصفية حركات الردة في السنة الأولى من حكمه حتى حشد كل طاقاته من أجل تحرير العراق والشام، فهل كان ثمة عوامل ظاهرة أو خفية تدفع أبا بكر الصديق من أجل اتباع هذه السياسة فضلاً عن حرصه على مواصلة السياسة التي بدأها الرسول ﷺ في هذا المجال؟ وهل كان محيطاً بمدى قوة الإمبراطوريتين التي سيتصدى لمحاربتهما تنفيذاً لهذه السياسة؟.

1. لقد أشير إلى أن شبه الجزيرة العربية كانت شحيحة في مواردها الاقتصادية بسبب مناخها الصحراوي مما كان يحمل أبناء القبائل العربية على الصراع من أجل الحصول على الكلأ والماء لرعي مواشيهم أو الهجرة شمالاً إلى العراق والشام حيث مصادر الرزق الوفير. فلما نجح أبو بكر الصديق في توحيد العرب تحت سلطة مركزية واحدة، كان من الضروري أن يوجه طاقاتهم إلى الجبهة الخارجية من أجل إعلاء كلمة الله في الأرض وتحسين أوضاعهم المعاشية[2]. يقول البلاذري: "لما فرغ أبو بكر ﷺ من أمر أهل الردة رأى توجيه الجيوش إلى الشام، فكتب إلى أهل مكة، والطائف، واليمن، وجميع العرب بنجد والحجاز يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه، وفي غنائم الروم، فسارع الناس إليه من بين محتسب وطامع"[3].

وقد أورد الطبري خطاباً لخالد بن الوليد يحث الناس على الجهاد و"يرغبهم في بلاد العجم، ويزهدهم في بلاد العرب، وقال: ألا ترون إلى الطعام كرفع التراب، وبالله

(1) ابن هشام: السيرة، ق 2، ص 661.

(2) الدوري: مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، ص 45 – 46، ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية، ج 1، ص 165.

(3) البلاذري: فتوح البلدان، ص 115.

لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء إلى الله عز وجل، ولم يكن إلا المعاش لكان الرأي أن نقارع هذا الريف حتى نكون أولى به، ونولي الجوع والإقلال من تولاه فمن أثقل عما أنتم عليه"[1].

2. أورد الطبري حواراً بين خالد بن الوليد وبين زعماء الحيرة يشير إلى أن دوافع التحرير القومي كانت تتداخل وتتكامل في فكره مع دوافع نشر رسالة الإسلام القائمة على العدل والإنصاف. قال خالد: "ويحكم! ما أنتم! عرب؟ فما تنقمون من العرب! أو عجم؟ فما تنقمون من الإنصاف والعدل! فقال له عدي: بل عرب عاربة وأخرى مستعربة فقال: لو كنتم كما تقولون لم تحادونا وتكرهوا أمرنا، فقال له عدي: ليدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا بالعربية، فقال: صدقت. وقال: اختاروا واحدة من ثلاث: إن تدخلوا في ديننا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا أن نهضتم وهاجرتم وإن أقمتم في دياركم، أو الجزية، أو المنابذة والمناجزة، فقد والله اتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة، فقال: بل نعطيك الجزية، فقال خالد: تباً لكم، ويحكم أن الكفر فلاة مضلة، فأحمق العرب من سلكها، فلقيه دليلان: أحدهما عربي فتركه، واستدل الأعجمي[2]..

3. لقد كان الهدف المركزي من حروب التحرير كما يفهم من الحوار الآنف الذكر هو نشر عقيدة الإسلام بين الناس، غير أن هذه الحروب لم تسع إلى إكراه أحد على اعتناق الإسلام وإنما كانت تستهدف توفير الظروف الموضوعية التي تساعد الناس على الاختيار الحر بين اعتناق الإسلام وبين أداء الجزية والعيش في ظل عدالة الإسلام.

إن تحقيق الأهداف الآنفة الذكر كان يتطلب أن يحشد المسلمون من وسائل القوة المادية والمعنوية ما يكافئ قوة الإمبراطوريتين الساسانية والبيزنطية ويتفوق عليها، فهل استطاع المسلمون أن يحشدوا مثل هذه القوة قبل الشروع في حروب التحرير؟

إن النصوص التي بين أيدينا تشير إلى أن تطور الأحداث لم يفسح المجال للتريث ريثما تتوافر مثل هذه القوة، وإنما شرع المسلمون في حربهم ضد الإمبراطورية الساسانية، ومن بعدها الإمبراطورية البيزنطية نتيجة ثقتهم العالية بأنفسهم التي نشأت عن وحدتهم الدينية والسياسية وشعورهم، ربما على نحو غامض بضعف خصومهم

(1) الطبري: تاريخ، ج 3، ص 354.

(2) المصدر نفسه، ج 3، ص 361 – 362.

وتفككهم.

وقد كان أبو بكر الصديق حريصًا على أن تبدأ حروب التحرير على جبهة الشام تنفيذاً للسياسة التي بدأها الرسول ﷺ في حياته، غير أن سير المعارك في حروب الردة، وبخاصة في البحرين قد أدى إلى الاحتكاك بالساسانيين في منطقة السواد في جنوب العراق وحفز المقاتلين المسلمين على إقناع الخليفة بفتح جبهة تحرير العراق[1].

أ. بدء تحرير العراق:

كان بنو شيبان قد اكتشفوا مدى الضعف الذي تعاني منه الإمبراطورية الساسانية منذ أن انتصروا على قواتها في معركة ذي قار بحدود سنة 610م. لذا فقد كانوا يغيرون على سواد العراق الذي كان خاضعًا لسيطرتها دون خشية من بطشها وانتقامها. وكان من جملة زعماء بني شيبان الذي درج على الإغارة على السواد في رجال من قومه خلال حروب الردة المثنى بن حارثة الشيباني "فبلغ أبا بكر الصديق ﷺ خبره، فسأل عنه، فقال له قيس بن عاصم بن سنان المنقري: هذا رجل غير خامل الذكر، ولا مجهول النسب، ولا ذليل العماد: هذا المثنى بن حارثة الشيباني، ثم إن المثنى قدم على أبي بكر فقال له: يا خليفة رسول الله، استعملني على من أسلم من قومي أقاتل هذه الأعاجم من أهل فارس، فكتب له أبو بكر في ذلك عهداً، فسار حتى نزل خفان، ودعا قومه إلى الإسلام فأسلموا[2].

إن موافقة أبي بكر الصديق على قيام المثنى على بدء حروب تحرير العراق، ربما جاءت بعد أن أوضح المثنى مدى ضعف الفرس ومدى استعداد عرب منطقة الخليج العربي وجنوب العراق على التعاون معه في قتال الفرس. ومن المحتمل أن أبا بكر الصديق بعد أن اقتنع بوجهة نظر المثنى بن حارثة الشيباني، قد توجه لاستشارة من حوله من كبار الصحابة حول هذه المسألة فوجد لديهم القناعة والتشجيع[3]. لذا فإنه لم يترك أمر الاضطلاع بهذه المهمة الخطيرة إلى المثنى وحده وإنما كتب إلى خالد بن الوليد يأمره بالتوجه إلى العراق لقيادة عمليات تحرير العراق بعد أن فرغ من القضاء على المرتدين في شبه الجزيرة العربية[4].

ويبدو أنه كان ثمة صلة بين حروب الردة في البحرين وبدء حروب تحرير

(1) طه حسين: الشيخان، ص 87 – 88.

(2) البلاذري: فتوح البلدان، ص 242.

(3) طه حسين: الشيخان، ص 88.

العراق، وذلك لأن بعض القبائل التي ارتدت عن الإسلام كانت تقيم في كل من البحرين وجنوب العراق وأن الفرس الساسانيين قد حاولوا تشجيع المرتدين وتوحيد صفوفهم تحت قيادة المنذر ابن النعمان بن المنذر المسمى بالغرور[1]. لذا فقد اضطر المقاتلون وعلى رأسهم المثنى بن حارثة الشيباني إلى دخول العراق من أجل مطاردة المرتدين مما ولد لديه شعوراً بأن تحرير عرب العراق من تسلط الفرس خطوة مكملة لحروب الردة التي استهدفت توحيد العرب في إطار سيادة الإسلام وسلطته المركزية.

وهكذا فقد توجه خالد بن الوليد إلى العراق في محرم سنة 12هـ/ 633م، على رأس جيش مؤلف من عشرة آلاف مقاتل. وقد انضم إليه في العراق ثمانية آلاف مقاتل، فأصبح عدد أفراد الجيش الذي تولى تحرير العراق ثمانية عشر ألف مقاتل[2].

لقد كانت توجيهات الخليفة أبي بكر الصديق لخالد أن يبدأ عمليات تحرير العراق من منطقة الخليج العربي ويتوجه إلى الإبلة قرب موضع مدينة البصرة، فكتب إليه: "أن سر إلى العراق حتى تدخلها، وابدأ بفرج الهند، وهي الإبلة، وتألف أهل فارس، ومن كان في ملكهم من الأمم[3].

وقد كتب خالد بن الوليد قبل توجهه لتحرير العراق رسالة إلى هرمز، حاكم الفرس لمنطقة الابلة، ينذره فيها بالحرب إن لم يقبل الإسلام أو يدفع الجزية حسب التقاليد العربية الإسلامية جاء فيها: "أما بعد، فأسلم تسلم، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة، واقرر بالجزية، وإلا فلا تلومن إلا نفسك، فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة"[4].

ولم يكن قبول هذا الإنذار من قبل هرمز بالأمر الميسور، وهو الذي كان ينظر إلى العرب نظرة استخفاف ويسيء معاملة الخاضعين لحكمه منهم حتى ضربوا المثل في كفره وخبثه فقالوا: "أخبث من هرمز، وأكفر من هرمز"[5] لذا فما كاد يتسلم هذا الإنذار الذي يخيره بين الإسلام أو الخضوع أو الحرب. حتى حشد قواته واتجه إلى كاظمة، وهي محطة لاستراحة القوافل على طريق البصرة لمقاتلة خالد عندها، وذلك

(1) العبيدي: بنو شيبان ودروهم في تاريخ العربي الإسلامي، بغداد 1984، ص 166 – 170، كمال، أحمد عادل: الطريق إلى المدائن، بيروت 1977، ص 205.

(2) الطبري: تاريخ، ج 3، ص 343، 347.

(3) المصدر نفسه، ج 3، ص 343.

(4) المصدر نفسه، ج 3، ص 347 – 348.

(5) المصدر نفسه، ج 3، ص 348.

لأن خالد بن الوليد كان قد توجه إليها وعسكرت قواته فيها[1].

وقد دارت على أرض كاظمة أولى المعارك الكبرى بين العرب والفرس، عرفت بمعركة ذات السلاسل، وذلك لأن مقاتلة الفرس قد قيدوا أنفسهم بالسلاسل خوفًا من الهرب إذا مالت الحرب لغير صالحهم، وقد اعترض بعضهم على هذا العمل فقالوا: "قيدتم أنفسكم لعدوكم، فلا تفعلوا، فإن هذا طائر سوء، فأجابوهم وقالوا: أما أنتم فحدثونا أنكم تريدون الهرب"[2].

لقد انتهت هذه المعركة بهزيمة قوات الفرس التي لم تذكر المصادر كم كان عددها، وقتل قائدهم هرمز وتم الحصول على غنائم ثمينة. وقد قام خالد بتوزيع حصة المقاتلين من الغنيمة ثم أرسل ما تبقى إلى الخليفة في المدينة فكان ذلك أول غنيمة من غنائم الفرس تصل إليها، ويقال: إنه كان بضمنها فيل فأثار منظره عجب الناس، لأن الكثير منهم وبخاصة النساء لم يسبق لهم رؤية فيل[3].

لقد ترتب على هذه المعركة أن تمكنت قوات المسلمين بالتقدم والحصول منها على الغنائم[4]. وقد توالت بعد ذلك المعارك بين جيش خالد والقوات الفارسية التي تحاول الثأر لهزيمتها، إلاّ أن نتائج المعارك كلها كانت لغير صالحها. وكان من جملة تلك المعارك وقعة المذار ووقعة الولجة ووقعة أليس عند الفرات، مما سهل على المسلمين السيطرة على أمغيشيا ثم التقدم لإخضاع الحيرة[5].

وقد حاول أهل الحيرة في البداية مقاومة جيش المسلمين، إلاّ أنهم لم يلبثوا أن تراجعوا بعد أن رأوا قوة المسلمين فأرسلوا وفدًا منهم إلى خالد لمفاوضته والصلح معه. وقد تم الصلح على أن يدخلوا في عهد المسلمين ويدفعوا الجزية، وكان مقدارها مائة وتسعين ألف درهم في السنة[6].

وهكذا تواصلت عمليات تحرير العراق على يد خالد بن الوليد لمدة تقرب من السنة حتى كتب إليه الخليفة أبو بكر الصديق في صفر سنة 13هـ/ 634 م أن يلتحق بقوات تحرير بلاد الشام مع جزء من قواته، وإن يسلم قيادة جند المسلمين في العراق إلى المثنى بن حارثة الشيباني. وبذلك هدأت جبهة العراق قليلاً ريثما تتم العمليات

(1) المصدر نفسه، ج 3، ص 348.
(2) المصدر نفسه، ج 3، ص 348.
(3) المصدر نفسه، ج 3، ص 349 - 350.
(4) المصدر نفسه، ج 3، ص 350.
(5) المصدر نفسه، ج 3، ص 350 - 360.
(6) المصدر نفسه، ج 3، ص 359 - 362.